Arab Journal of Sciences and Research Publishing
Volume (8), Issue (3): 30 Sep 2022
P: 66 - 76

ISSN: 2518-5780

المجلة العربية للعلوم ونشـر الأبحـاث
المجلد (8)، العدد (3): 30 سبتمبر 2022 م
ص: 66 - 76

The structure of the scientific perception of the world, sanctification for knowledge or secularization of it?

Sabah Kara
Faculty of Literature & Languages || University of Setif 2 || Algeria

Abstract: The perceptions of the world have an effective functional role as an explanatory means of the laws and systems of the universe and an answer to the human being about his various crucial questions, including existential, epistemological and value.

These perception branch into types, the most famous of which are philosophical, religious and scientific.

This article will be concerned with the perception scientific, which enjoys wide acceptance and spread, by extending its concept and searching for its most important features and principles, in addition to monitoring the most important crises resulting from it, in order to ask in the end about the relationship of the scientific perception wich holiness, meaning is the knowledge resulting from the scientific perception a sacred ladle respected the transcendement thruth, or is it a declared imperialiste materialism that violate man and nature and reprisents an instrument of domination, as Francis Bacon said: «the knowledge is power»

Keywords: world perception, Scientific perception, sacred knowledge, secularized knowledge.

بنية التصور العلمي للعالم، تقديس للمعرفة أم علمنة لها؟

صباح قارة
كلية الآداب واللغات || جامعة سطيف2 || الجزائر

المستخلص: تملك تصورات العالم دورا وظيفيا فعالا؛ باعتبارها وسيلة توضيحية لنواميس الكون ونظمه، وإجابة للإنسان عن مختلف أسئلته الحاسمة الوجودية منها والمعرفية والقيمية. وتتفرع هذه التصورات إلى أنواع أشهرها: الفلسفية والدينية والعلمية.

وسيهتم هذا المقال بالتصور العلمي الذي حظي بإقبال هائل وانتشار واسع، وذلك من خلال بسط مفهومه والبحث عن أهم سماته ومبادئه، إضافة إلى رصد أهم الأزمات الناتجة عنه، ليتساءل في الأخير عن علاقة التصور العلمي بالقداسة؛ بمعنى هل المعرفة الناتجة عن التصور العلمي معرفة مقدسة تحترم الحقيقة المتجاوزة للإنسان أم أنها مادية، إمبريالية، معلمنة تنتهك الإنسان والطبيعة وتمثل أداة سيطرة وهيمنة فتكون المعرفة بذلك قوة، كما وصفها فرانسيس بيكون.

الكلمات المفتاحية: تصورات العالم، التصور العلمي، مبادئ التصور العلمي، معرفة مقدسة، معرفة معلمنة.

المقدمة.

البحث عن المعنى مقترن بكينونة الإنسان وبطبيعته الإنسانية، لذا وجدت تصورات العالم لتعكس رحلة بحثه عن المعنى، ومدى فهمه للكون، ومدى قدرته على تفسيره وتأويله إذ "من الواجبات الملقاة على عاتق الروح إيجاد نظرة إلى العالم؛ ففيها جذور كل الأفكار والمعتقدات وألوان النشاط المتصلة بالعصر، ولا نستطيع الوصول إلى الأفكار والمعتقدات التي هي أسس الحضارة العامة إلا بالحصول على نظرة إلى العالم...إذ أنها مضمون أفكار المجتمع

والأفراد الذين يؤلفونه، أفكارهم عن الطبيعة وعن موضوع العالم الذي يعيشون فيه وعن مكانة الإنسانية والأفراد ومصيرها[1]"

تصورات العالم إذن ضرورة ملحة باعتبارها تقدم إجابات للإنسان؛ حتى وإن كانت إجابات مؤقتة، تهدئ من قلق وحيرة أسئلته بمختلف أضربها. وتتنوع تصورات العالم تبعا للمصدر الذي تستقى منه، وبناء على هذا تم حصر أشهر تصورات العالم في ثلاثة أنواع، التصور الفلسفي، التصور الديني والتصور العلمي.

مشكلة الدراسة:

يضطلع هذا البحث بالتصور العلمي نظرا لانتشاره الفائق وصداه الهائل ولثقة الأغلبية بأنه الأنجع في تفسير مختلف الظواهر. وسيحاول هذا البحث أن يكشف مدى صحة هذا الرهان من خلال طرح مجموعة من الأسئلة حول هذا التصور أهمها: ما المقصود بالتصور العلمي؟

1. ما أهم سمات التصور العلمي للعالم؟ وما هي أهم مبادئه؟
2. ما سبب انتشار التصور العلمي للعالم؟ ولماذا خلق هذا التصور بعض الأزمات؟
3. كيف كان انعكاس التصور العلمي على المعرفة؟ بمعنى هل المعرفة التي تنتج عن هذا التصور معلمنة أم مقدسة؟

أهمية الدراسة:

يكتسب البحث مشروعيته من خلال فاعلية طرح مفهوم فلسفي مهم، شاع في العصر الحديث والمتمثل في "التصور العلمي" وإبراز أهم الأفكار التي تمثل الأرضية التي ينبني عليها، مع محاولة الكشف عن أهم سماته ومطباته، والرهان على مدى قدرته ونجاعته على تفسير مختلف الظواهر.

منهجية البحث وطرائقه.

اعتمد البحث على مواد نظرية أي مجموعة من محددات تنظيرية؛ تسعى إلى رفع اللبس عن مفهوم التصور العلمي وتجليته، وذلك بمحاولة رسم حدود المصطلح وملابسات ظهوره، مع ذكر أهم دعائمه ومطباته. وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي الذي لا يكاد يغيب عن أي بحث علمي، ويتضح ذلك أثناء مقاربة المصطلح مفهوميا ودراسة بعض العناصر المتعلقة به. إضافة إلى المنهج التحليلي خاصة في المبحث المتعلق بعلاقة التصور العلمي بالقداسة؛ إذ تم التعمق في تفسير ناتج المعرفة متى يكون معلمنا ومتى يكون مقدسا؟

أولا- مفهوم التصور العلمي للعالم:

يمكن أن نستهل الحديث عن التصور العلمي بما أدرجه "ولتر ستيس" في كتابه "الدين والعقل الحديث "من أن هذه التسمية لا تعدو أن تكون مشتقة من العلم، لذلك فوجهة النظر العلمية عن العالم ليست منصفة للعلم طالما أنها ليست بالضرورة هي وجهة النظر التي يعتنقها العلماء أنفسهم، لكن ذلك لا يعني أن جميع العلماء يأخذون بها فعلا أو حتى الغالبية منهم.

(1): *ألبيرت أشفيتسر: فلسفة الحضارة*، تر: عبد الرحمان بدوي، ص67.

وتسمية النظرة العلمية للعالم لا تعني وجود نتيجة منطقية ضرورية لأي شيء في العلم، فليس ثمة وجهة نظر رسمية للعلم[2]، وبالتالي فهذه التسمية صورة لصيقة بالعلم دون أن تكون ممثلا حقيقيا له، لذا يقترح "ولترستيس" أسماء أخرى مثل "المذهب الطبيعي" و"النظرة الطبيعية عن العالم"...

فما المقصود بالنظرة العلمية/التصور العلمي؟ وما لذي يجعل المعرفة العلمية الثقافة المهيمنة في هذا العصر؟

إن تاريخ الحقبة الحديثة هو تاريخ الصراع بين وجهتين من النظر (العلمية والدينية) مع رجوح كفة النظرة العلمية إذ بدت هي المسيطرة على الحقبة الحديثة حتى جعلتها تتميز عن باقي العصور التاريخية الأخرى.

فالنظرة العلمية للعالم تتشكل وتبلور ذاتها من خلال الثقافة السائدة والمهيمنة، وما هو واضح للعيان أن الثقافة العلمية شقت طريقا معتبرا، واستطاعت أن تفرض هيمنتها بين الناس في مختلف بقاع العالم تقريبا، بالرغم من قصورها عن الإجابة عن بعض الأسئلة التي يقف الإنسان مذهولا أمامها خاصة الميتافيزيقية، فما هي النظرة العلمية إلى العالم؟ وما هي أهم مقوّماتها؟

النظرة العلمية إلى العالم أو التصور العلمي للعالم* هو مجموعة من الأفكار التي بدت أمام العقول النمطية الحديثة أنها تشمل الروح العلمية سواء أكانت كذلك في الواقع أم لا، وتاريخ هذه الأفكار هو تاريخ الحقبة الحديثة، إذ سيطرت هذه النظرة على العقل الحديث حتى بدا مختلفا متميزا عن باقي العصور التاريخية الأخرى[3].

ومن الملامح البادية على الحقبة الحديثة أنها عصر تكاد تحدث فيه القطيعة بين ما هو ديني وما هو علمي، وفي هذا يقول "ولتر ستيس "أنها عصر لم يعد فيه أمل للإيمان بالتدخلات الإلهية في عمل الطبيعة، إن الدين الحي يقتضي على الأقل الشعور بوجود إله لا يزال يعمل داخليا في قلوب الناس عندما يصلون[4]".

ولقد قيل أيضا أن الله لم يعد يتدخل الآن في عمل العالم الفيزيقي، لكنه لا يزال يتدخل في الأعمال السيكولوجية للعالم الداخلي لعقول الناس، وإذا لم يعد يرسل طعاما ماديا عن طريق الغربان فهو يرسل لنا غذاء روحيا عن طريق المقدسات، بواسطة النعمة الإلاهية والدين بطريقة أو بأخرى إذا لم يكن مجرد تجريدات عقلية يقتضي الشعور بإله قريب منا ويؤثر في حياتنا. غير أن علم نيوتن وما تلاه انتهى بتجفيف منابع الدين الحي، بأن دفع

---

(2): *والتر ستيس: الدين والعقل الحديث*، ص188.

* تعتبر "دائرة فينا" أول من صاغ مصطلح التصور العلمي للعالم في بيانها الذي وقعه كل من هانزهان وأرطونوراث ورودولف كارناب، وقدم لموريتس شليك امتنانا له على قراره البقاء في فينا، وفيه يعرضون خاصيتين جوهريتين للتصور العلمي للعالم:

أولا: أنه تجريبي ووضعي.

ثانيا: يتميز التصور العلمي بتطبيق منهج معين.يوسف تيبس: التصورات العلمية للعالم، ص 29.

وقد بدأ التصور العلمي في التبلور منذ القرن 17/السابع عشر، عندما تم الكشف عن حقائق تناقض تلك السائدة منذ قرون عديدة، واكتسبت هذه الحقائق يقينيتها باعتماد البرهنة العقلية والتحقق التجريبي مما حولها إلى معتقدات دفعت بالبعض إلى استبدالها بالدين في القرن الثامن عشرة والتاسع عشرة، وبذلك تحول العلم إلى تصور أو فلسفة تامة تشمل الميتافيزيقا والمنطق والأخلاق.

وبما أن كل نظرية علمية لها مسلماتها ونتاجها اللازمة عنها فقد تحول العلم إلى قوالب معرفية أو باراديمات مقدسة من قبل الجماعة العلمية، وهو يعني صعوبة التخلي عن التصورات العلمية التي تترسخ عبر الحقب التاريخية للعلم، كما هو حال تصور بطليموس لمركزية الأرض، إذ صعب وتعسر على كل من كوبرنيكوس وجاليليو إقناع الناس والكنيسة بالعكس. يوسف تيبس: التصورات العلمية للعالم: ص، 37، 38.

(3): *والتر ستيس: الدين والعقل الحديث*، ص188.

(4): المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الله إلى الخلف وقام بتشبيهه بصانع الساعة، الذي ملأها ثم تركها تعمل وفق آلية داخلية، ولا يختلف الله عن الآلة البشرية إلا أنه خلق الحركة الدائمة للآلة التي تعمل بنفسها إلى الأبد دون أي تدخل من جانبه[5].

هذه النظرة الحديثة للعالم غيبت وأقصت وظيفة الله في هذا الكون، واعتبرته شبيها بالآلة البشرية. والصفة نفسها وصف بها العلماء العالم وأطلقوا عليه تسمية الآلة وكل ما فيه آلي، وقد لاقت هذه الفكرة صداها في أوروبا وانتشرت بسرعة البرق وطغت على العالم الحديث، فهذا "توماس هوبر" Thomas Hobbes" يقارن بين الجسم البشري والآلة فكتب يقول" ماذا يكون القلب سوى نابض والأعصاب سوى مجموعة من الأوتار، والمفاصل سوى مجموعة من العجلات التي تعطي الحركة للجسم كله[6]".

أما "هيوم" فكتب يقول "انظر إلى العالم من حولك وسوف تكتشف أنه ليس شيئا سوى أنه آلة عظيمة تنقسم إلى عدد لا نهاية له من الآلات الفرعية الصغيرة[7] ".

فما هو واضح أن نظرة بعض العلماء مثل "هوبز" و"دافيد هيوم" نظرة اختزالية ضيقة؛ إذ اختزلت العالم الذي سمته التنوع والاختلاف في شيء جامد "الآلة" وشيّآته، وتجاهلت أسراره وجوانبه التركيبية الروحية العميقة، وفسرته بكل برودة وجفاء تفسيرا ماديا مجحفا. رغم هذا التصور السطحي للعالم إلا أن معظم الناس مبهورين بالعلم ومنجزاته، إذ يثقون ثقة عمياء في التصورات العلمية للعالم، وقد يرجع ذلك إلى خوف الانسان الدائم من الموت مما يدفعه إلى قبول أو تفضيل المعارف الناجعة فقط، ومن ثمة ازدادت ثقته في العلم لأنه أثبت فعاليته في الأمراض والكوارث والمخاطر والتنبؤات. كما أن العلم يعتبر معرفة بالظواهر الطبيعية، أي نسق من العلاقات الثابتة بين الظواهر التي تصاغ على شكل قوانين وتبنى على منوال نظريات، وعليه تكون هذه النظريات فهما وتفسيرا للواقع والعالم في مقابل التفسيرات الفلسفية اللاهوتية والأسطورية وتفسيرات أخرى تتجاوز واقعنا إلى الحقائق الماورائية أو المتخيلة[8].

فالعلم بمنهجيته المضبوطة والصارمة ونتائجه التي أثبتت نجاعتها وأبهرت الإنسان جعلت البعض ينصبه كدين جديد للبشرية.

ثانيا- مبادئ التصور العلمي للعالم.

ككل تصور أو رؤية يرسم التصور العلمي منهجا خاصا به، فهو يتقوم بعدة أفكار ومبادئ أهمها:

1- أن العالم يتكون من الذرة ومكوناتها (الإلكترون والبروتون والنوترون، والأوتار الفائقة).
2- يعزو التصور العلمي مصدر العالم ونشأته إلى الانفجار الأكبر الذي خلق المادة، ونشأت الأنواع المختلفة عن الطفرات، والبقاء في هذا العالم يكون للأصلح.
3- مصير العالم: يتوسع الكون وينتشر في الزمان والمكان.
4- القيم الواجبة أو (الخير والشر)، يتمثلان في الموضوعية والعقلانية.
5- الدرب والمنهج الذي يجب أن يسلكه الإنسان يتمثل في المنهج الذي يبحث في الظواهر القابلة للقياس.
6- معايير الحقيقة: تتمثل في المعارف القابلة للتحقق أو الإبطال[9].

---

(5): المرجع نفسه، ص ص 119، 118.

(6): المرجع نفسه.الصفحة نفسها.

(7): *والترستيس: الدين والعقل الحديث*، ص132.

(8): ينظر: *يوسف تيبس، التصورات العلمية لعالم*، ص 37.

(9): ينظر: *يوسف تيبس، التصورات العلمية للعالم*، ص 32.

7- إذا طرحنا سؤال هل للعالم غرض؟ فإن التصور العلمي يجيبنا بأن ليس للعالم غرض، بل هو عبث لا معنى له تماما.

8- ليس للعالم نظام أخلاقي، وإنما الكون محايد للقيم من أي نوع[10].

تمثل هذه المبادئ أهم أفكار التصور العلمي، والملاحظ أنها تختلف اختلافا جذريا عن أفكار التصور الديني، فإذا كان الثاني يسعى إلى إضفاء معنى على حياة الإنسان والحفاظ على توازنه الأنطولوجي، فإن التصور العلمي رد كل شيء إلى المادة، كما أنه لم يراع إنسانية الإنسان لما استمر في مشروعه التقدمي وتطبيق مشاريعه دون أن يكترث بنتائج ذلك على الإنسان.

ثالثا- مميزات التصور العلمي للعالم:

1- يتميز العالم من الزاوية العلمية بالمادية والواحدية والحتمانية، ذلك أنه يتكون من مادة وطاقة ويخضع لقوانين يمكن اكتشافها وفهمها ثم التعبير عنها رمزيا، أي بلغة الرياضيات والمنطقيات، أما الحياة فهي عبارة عن تفاعلات كيميائية تكمن في الجينوم* الذي تمكن العلم من فك شفرته، وتخضع الحياة للتطور المبني على الانتخاب الطبيعي، إضافة إلى الإثباتات التي توصلت إليها العلوم العصبية من أن الأفكار والعواطف وكل الحالات النفسية هي تحصيل حاصل لعمليات الدماغ المختلفة، ومن ثم فالعقل والوعي ينبثقان تدريجيا من الدماغ عبر صيرورة تطورية، وبالتالي فالعلم الحديث تمكن من طرد الأرواح من العالم، ولم يعد الواقع معطى بل الإنسان هو الذي يساهم في بنائه[11].

2- تتميز المعرفة العلمية بالدقة والوضوح وتناولها الأجزاء، إذ العلم قادر على إعطاء الإنسان آلاف المعلومات من أصغر ظاهرة من الظواهر الطبيعية، كما أن المعرفة العلمية باكتشافها القوانين المتحكمة في أي كائن تكشف للإنسان طرق الهيمنة والتسلط على ذلك الكائن[12].

رابعا- أزمة التصور العلمي للعالم:

بقدر ما يقدم التصور العلمي للعالم إجابات للإنسان ولمختف تساؤلاته، وبقدر ما أبهره وشغفته نتائجه التي يسّرت له سبل حياته وحلّت محل الوظائف التي كان يؤديها، إلا أن لهذا التصور مطبات ومآخذ تتجلى أهمها في:

1- يتميز العلم بالدقة والوضوح ومنحه القوة والقدرة للإنسان إلا أن دائرته ضيقة ولا يتجاوز حدود موضوعه الخاص، ذ هو يتقدم في مجال معرفة العلل والأسباب أو المعلولات والآثار ثم يصل إلى حيث يقول: "لا أدري" فإذا أردنا مثلا أن نعرف حادثا معيّنا عن طريق العلم؛ نبحث عن علته ونعرفها ثم نفتش عن علة العلة ومعلول المعلول، وعن محيط أوسع وتاريخ أبعد، ولنفرض أننا قد بلغنا كل ذلك بالبحث والافتراض والاختبار وصولا إلى مرحلة وضع القوانين العلمية، فسنواجه في النهاية سلسلة لا نهاية لها من العلل والمعلولات اللامتناهية، لذلك شبهت المعرفة العلمية بالكاشف القوي في ليلة ظلماء، يضيئ دائرة محدودة إضاءة جيدة

---

(10): *والترستيس: الدين والعقل الحديث*، ص189.

*: الجينوم: مادة وراثية تحتويها الخلية، وهو يتضمن كل المورثات Genes، يضاف إليها أيضا كل المادة الوراثية المحيطة بمنطقة المورثات: الجينوم: مجلة عالم الفكر، ، الكويت، ع2، مج 35، أكتوبر-ديسمبر، 2006، ص 81.

(11) :ينظر: *يوسف تيبس، التصورات العلمية لعالم*، ص40.

(12): *إعداد مركز المعارف للتأليف والتحقيق، العالم في المنظور الإلهي والمنظور المادي، المعرفة العقلية والقلبية*، ص62.

بحيث أننا نعثر على إبرتنا الضائعة في تلك الدائرة من الضوء الساطع، إلا أن ما يضاء أمامنا لا يتعدى تلك الدائرة المحدودة وكلما تقدمنا وأضأنا الظلمات المتتالية وجدنا أمامنا فضاء من المجهول المظلم الذي لا ينتهي، كما تُشبَّه المعرفة العلمية أيضا بالكتاب القديم الذي سقط أوله وآخره، فلا أول له معروف ولا آخر له معروف، ولا يعرف مؤلفه ولا يدري هدفه والغرض منه[13].

2- بما أن التصور العلمي تصور جزئي وليس كليا، فإنه غير قادر على توضيح ملامح العالم كلها وعليه فالإنسان بحاجة إلى معرفة أكثر، يقول عبد الوهاب المسيري: "العلم قادر على رصد الظواهر الطبيعية المادية والجوانب المادية في الانسان، ولكنه عاجز عن تزويد الإنسان بمنظومة من القيم المعرفية والأخلاقية والجمالية[14] ".

3- من مساوئ التصور العلمي الأخرى أنه لا يستطيع أن يلهمنا السلوك الذي يجب أن نختاره في حياتنا، أي أن العلم يطلعنا على ما هو موجود، دون أن يوحي إلينا بما ينبغي أن يكون، أو عن أي من السبل التي يجب أن نسلكها.

4- الاتجاه القيمي للعلم يعني قدرة الإنسان على التسلط على الطبيعة، والتصرف فيها وتغييرها وفق مراده، لذلك يدعو "بيرتراند راسل" إلى التمدّن العلمي النافع، ويتحقق ذلك بازدياد الحكمة إذ يقول" وأعني بالحكمة الإدراك السليم لغايات الحياة، وهذا في ذاته لا يقدمه العلم، فزيادة العلم إذن لا تكفي لتحقيق رقي صادق، وإن قدمت واحدا من مقومات الرقي[15]".

5- صعوبة التحكم في كثير من الأمور علميا، حتى أضحى عدم التحكم سمة أساسية في عصرنا، فكلما زادت ميكنته والسيطرة عليه علميا قلت إمكانية التحكم فيه، ويتجلى ذلك في أمور كثيرة مثل مشكلات البيئة والفشل في التخلص من النفايات وتزايد الأمراض النفسية...الخ[16].

6- العلم قادر على رصد الظواهر الطبيعية المادية، والجوانب المادية في الإنسان، ولكنه عاجز عن رصد الجوانب المركبة المعنوية (الروحية) مثل بحثه عن المعنى، كما أنه عاجز عن تزويد الإنسان بمنظومة من القيم المعرفية والأخلاقية والجمالية.

7- يمر العلم الحديث والتكنولوجيا بأزمة حادة تتجلى في أشكال مختلفة، وتبرز أوضح هذه الأشكال في الحواصل النهائية للعلم المعاصر والمنظومات التكنولوجية كالتقنيات والمنتوجات الموجهة نحو الدمار والإتلاف واغتراب الناس عن بعضهم البعض.

8- العلم والتكنولوجيا لا يحسّنان الأوضاع المادية والروحية لسكان العالم، على وجه الخصوص أولئك الذين يقطنون العالم الثالث على سبيل المثال، إن ما يسمى التطورات التكنولوجية كالهندسة البيولوجية والحواسيب، تجعل قسما كبيرا من القوة العاملة زائدا عن الحاجة، مما يؤدي إلى البطالة وإساءة استغلال المهارات، وغالبا ما يفضي العلم الأكثر تطورا إلى مشاكل أكبر[17].

---

(13): المرجع السابق، ص ص26، 63.

(14): *سوزان حرفي: العلمانية والحداثة والعولمة*، حوارات مع عبد الوهاب المسيري، ص48.

(15): راسل برتراند: *النظرة العلمية*، تر: عثمان نويه، ص07.

(16): ينظر: سوزان حرفي، *العلمانية والحداثة والعولمة*، حوارات مع *عبد الوهاب المسيري* ص50.

(17): *إعداد فريق شبكة العالم الثالث ورابطة المستهلكين، أزمة العلم المعاصر*، تر: هبة ناصر، ع10.

خامسا: علاقة التصور العلمي بالقداسة:

شهد العصر الحديث تغيرات جذرية على جميع الأصعدة السياسية، الدينية، والثقافية، كما شهد أيضا تغيرا في أنماط التفكير وفي رؤى الإنسان إلى العالم، إذ اتسمت الرؤية الحديثة بجحود المقدس، وطغيان النظرة العلمانية الدنيوية على كافة الأصعدة، والمعرفة بدورها لم تسلم من هذه العلمنة التي أقصت وأسقطت المقدسات من حيّزها، واهتمت بالتجريب ونصّبته مركزا جديدا.

وما هو معروف أن لرؤى العالم/تصوّرات العالم وظيفة معرفية تسأل عن طبيعة المعرفة ومصدرها، وتبحث عن المقاصد المرجوّة منها. هل هي تحقيق الخير وتكريم الإنسان وإسعاده أم الولوج بالبشرية في كومة من الإشكاليات؟

ولقد تمت الإشارة إلى أن أشهر تصورات العالم هي التصورات الفلسفية والعلمية والدينية، والقضية التي تهمنا ما علاقة الرؤية العلمية بالقداسة، أو بالأحرى إذا وضعنا المعرفة العلمية والقداسة على محك واحد فهل ستنتج لنا نمطا مقدسا من المعرفة أم نمطا معلمنا.

تحدث "سيد حسين نصر"عن التّنوع في المكون الحقيقي للمعرفة الغربية، وبيّن أنها قامت في الأساس على علوم عدة حضارات من بينها الحضارة الإسلامية والهندية والفارسية والمصرية واليونانية، لكن ما جرى في القرن السابع عشرة من ثورة علمية، فرض نموذجا تفسيريا جديدا (Paradigm) غريبا على مضمون ميراث تلك الحضارات، إذ اتّسم بالعقلانية الصارمة في العصر الحديث، وعولمة الكون التي أدت إلى ما يُعرف بالنهضة رغم محاولات بعض روّادها الحفاظ على منظور طبيعة الكون المقدسة. وقد أنتج هذا البراديغم الجديد علما ضخما أحادي البعد، رافض وناكر لوجود علم أسمى منه وعيا، فهو علم أرضي بأعمق معنى، وقد اتخذ شكلا ظاهريا حتى حينما يحاول تناول أبعد مطال للسماء وأعمق أبعاد النفس الإنسانية، فهو علم غايته الموضوعية لا تتعدّى التركيب النفسي والجسماني للعالم الطبيعي الذي يحيط بالإنسان، لا تتعالى غايته الذاتية على ما وراء العقل الإنساني بنور البصيرة، يعمل في كون أصبح الإنسان فيه تجريدا فحسب، رغم أن عليه أن يلتزم بأسلوب الإنسان الصرف في فهمه للأمور، ولكنّه مختلف جذريا من حيث منظوره للحياة، المختلف عن منظور الحضارات الشرقية العظمى[18].

فالعلم الحديث نمط مغاير لأنماط علوم الحضارات السابقة كليا، وعلة ذلك أنه أدار ظهره للميتافيزيقا وتنكر للإنسان وللقيم ولم يكتف بهذا بل تنكّر للإله أيضا، فبعض العلماء من أمثال "كوبرنيك" و"ديكارت" و"غاليلو" و"نيوتن" آمنوا بالإله الخالق، لكنهم في الآن نفسه سعوا في تخريب النظرة الاعتقادية الشاملة التي هيمنت على الإنسان المسيحي، وأحلّوا محلّها اعتقادات عن الإله والعالم والأرض والإنسان تنزع عنها لباس القدسية الذي كان يزيّنها، ونفوا عن الإله القدرة على التّدخل في شؤون العالم أو التفاعل معها واعتبروه غير مبال بأعمال المخلوقات، لا يوحي إليهم، ولا يستجيب لأدعيتهم، ولا يحدث معجزات بين أيديهم، بل إنه لا يملك من شؤون هذا العالم إلا فعل الخلق الأول، واكتفى فيه بجمع أجزاء العالم كما يجمع الساعاتي دواليب الساعة ووضع له قوانين خالدة، وأجرى فيه الأسباب الثانية، ثم أرسله إرسالا ليعمل من ذاته بصورة آلية حتى إنه غدا لا يعلم من جزئياته شيئا[19].

(18): ينظر: *سيد حسين نصر: الحاجة إلى علم مقدس*، تر: حمادة أحمد علي، وعمر نورالدين، ص ص108، 109.

(19): *طه عبد الرحمن: سؤال العمل – البحث عن الأصول العلمية للفكر والعلم-*، المركز الثقافي العربي، ص238.

لم يكتف العلماء بهذا الاختزال للوظيفة الإلهية، بل أنكروا عليه فعل " الخلق" واعتبروه مجرد فرضية لا حاجة لها في المجال العلمي[20]". فالإله لم يعد يشكل مركز العظمة والجلال والهيبة إذ الطريق إلى الشك في مطلقياته وقدرته على التحكم في كل شيء صار ممكنا.

والضربة نفسها وُجّهت للإنسان الذي شيّأه "ديكارت" ورأى في جسمه آلة أشبه بالساعة، فهيكله عبارة عن روافع، وقلبه عبارة عن مضخة، والعلل التي تصيبه إنما هي صور للخلل الذي يطرأ على هذه الأجهزة البيولوجية، والروح لا تعدو كونها بخارا لطيفا يجري في أوعية القلب[21].

فالنظرة المادية لدى هؤلاء العلماء جلية، وذلك بتملصهم كليا من الإيمان بالمطلقات ومن التفسير الغيبي للكون والإنسان وبقولهم إن كل الأشياء المكوّنة للعالم قابلة للتجربة والملاحظة وقابلة للتشكيل في صيغ رياضية.

ولعلّ هذه النظرة المادية المعلمنة ترجع أساسا إلى تبنّي التصور العلمي للعالم لعقلانية مبالغ فيها واحتفاؤه الجنوني بها، والعقلانية كما هي واردة عند هايدغر تعني "تدبير العالم تدبيرا رياضيا، وكإرادة قوة للهيمنة والسيطرة على الطبيعة[22]".

والعقلانية المجرّدة أيضا –حسب طه عبد الرحمن- هي" عبارة عن خاصّية الفعل الإنساني الذي يقوم في السعي إلى تحقيق مقاصد لا يقين في نفعها بوسائل لا يقين في نجوعها، تُخل بشرط النفع في المقاصد لوقوعها في النسبية والفوضى، كما تخل بشرط النجوع في الوسائل لإقصائها المعاني الروحية واكتفائها بالظواهر الخارجية، واعتمادها للوسائط المادية وحدها[23].

وهذا ما تجلى لما اعتمدت النظرة العلمية الحديثة على العقل الحديث الأداتي، الذي لم يعد نمطا للتّزلف من حقيقة الوجود وشكلا للإصغاء لنداء الكينونة، والانتساب إلى الأرض الأم، إنما صار العقل إرادة قوة، وصار سلطة تملي امبرياليتها الحسابية والرياضية على موجودات العالم باسم العلم والتقنية.

كما صار العقل العلمي المعاصر كيفية للتّنفّذ في العالم، ولتملّك موارده واستغلال ثرواته، وربما قاد ذلك إلى نهاية كارثية تمحق الكائن والكينونة سواء بسواء، لأن من يتنكّب طريق العقلنة إنما يلقى نفسه تائها في قفار أرض يباب، ومن يصغي "لنداء العقل" يفقد وطنه وأرض ميلاده ويدخل في متاه العالم[24]".

فالعقل الحديث عقل حاد عن مقاصده ومراميه الحقيقية، فبدل أن يلتزم بمهمته كأداة تعمل على التقّرب من الوجود وتحاول فهمه وفهم الحقيقة الإنسانية، أضحى أداة قوة وسيطرة وإمبريالية، يستخدم للتوسّع في العالم واستنزاف ثرواته واستعمالها فيما يفيد البشرية وما لا يفيدها، كما أضحى أداة سيطرة وهيمنة تودي بالإنسان، وهذا ما يذكّر بمقولة "فرانسيس بيكون"Francis Bacon (1561-1626) "Knowledge is power" "المعرفة قوّة"، إذ لم تعد المعرفة تعبّد طريق السعادة والرفاهية أمام الإنسان بقدر ما تشكّل تهديدا له وخطرا يترصّده، إضافة إلى الطابع الاستغلالي للإنسان والطبيعة التي ينتهجها العقل الحديث، يعاب عليه أيضا ثقته العمياء في قدراته، إذ هو يدّعي أن "العالم قابل للإدراك كليا عن طريق العقل المتحكم في كل شيء، وقد صار كأنما توجّهه العناية الإلهية، أو كأنما تحكمه أسطورة أشبه بالدينية[25]".

---

(20): المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

(21): المرجع نفسه: ص 239.

(22): *محمد الشيكر: هايدغر وسؤال الحداثة*، ص132.

(23): *طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق – مساهمة في النقد الأخلاقي في الحداثة الغربية*، ص75.

(24): *محمد الشيكر: هايدغر وسؤال الحداثة*، ص ص 131، 132.

(25): *إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية*، تر: عبد الرحيم حزل، ص38.

فالعقل الحديث قفز على فكرة تنوع المصادر التي تُستقى منها المعرفة، والتي تحاول التقرب من الحقيقة، واعتبر نفسه السبيل الوحيدة، أو الأداة الناجعة والكاملة والعجيبة المؤدية إلى معرفة حقائق الأشياء.

إضافة إلى تبنّي التصور العلمي للعقلانية الصارمة، نحا العلم أيضا نحو تطبيق النموذج التجريبي المادي والثقة البالغة فيه والتوسّل به، لأنه يحقق السيادة على الطبيعة بعد فضح أسرارها والتطلّع عليها، وييسر للإنسان القدرة على التحكم فيها بفعل التغيرات التي بمقدوره أن يحدثها بعد فهم ظواهرها، بهذه الطريقة رسم العلم دربه محاولا إخضاع الكون لمبدأ الحتمية، فكل ظاهرة من ظواهر الكون خاضعة ومقيدة بشروط هي التي تتسبب في حدوثها، فهي خاضعة لقانون يجعلها معلولا لما قبلها وعلة لما بعدها، وكل ما يحدث لابد أن يحدث بفعل قوانين العلة[26].

وسيطرة هذا المنهج التجريبي على الساحة المعرفية جعل مفهوم العلم يتغير؛ إذ لم يعد يتضمن كل أنواع المعرفة التي توصّل إليها الإنسان بمختلف الطرق، بل أصبح يقتصر فقط على المعرفة المكتسبة بواسطة منهج محدد، ينبني أساسا على الملاحظة والتجربة والحساب، بل وصل الأمر إلى إنكار المعارف التي لا تحصل بالمنهج الوضعي، وتم اعتباره منهجا بمقدوره أن يحيط بكل الحقيقة، وباستطاعته الإجابة عل الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الإنسان حتى ولو تعلّقت بأسرار وجوده[27].

وهذا ما جعل هوسرل يتحدث عن الطبيعة الاختزالية للعلم الحديث بقوله" إن المفهوم الوضعي للعلم في زماننا مفهوم اختزالي، إنه قد تخلى عن كل تلك الأسئلة التي تدرج تحت المفاهيم الضيقة تارة والواسعة تارة للميتافيزيقا، وضمنها كل الأسئلة التي تنعت في غموض بأنها " الأسئلة العليا والأخيرة[28]".

وفي هذا المعنى يقول أيضا " إن علوما لا تهتم إلا بالوقائع تصنع بشرا لا يعرفون إلا الوقائع...كثيرا ما نسمع أن العلم ليس له ما يقوله لنا في المحنة التي تلمّ بحياتنا، إنه يقصي مبدئيا تلك الأسئلة التي تعتبر هي الأسئلة الملحّة بالنسبة للإنسان المعرّض في أزمنتنا المشؤومة لتحوّلات مصيرية، الأسئلة المتعلقة بمعنى هذا الوجود البشري بأكمله أو لا معناه. ألا تتطلب هذه الأسئلة بسبب عموميتها وضرورتها لكل الناس تمعّنات عامة وإجابة تعتمد على بداهة عقلية، إنها تتعلق في آخر المطاف بالإنسان[29].

التصور العلمي حسب الأقوال السابقة تصور-+ يدّعي فلاحه في الإجابة عن كل شيء في حين أنه في الحقيقة يجيب فقط عن الظواهر القابلة للملاحظة والتجربة، ومن ثم فهو يُعتبر تصورا قاصرا وعاجزا، ليس بإمكانه احتواء الظاهرة الإلهية ولا الإنسانية والإحاطة بهما كونهما مركّبتين.

يعتبر التصور العلمي أيضا قاصرا كونه أخل بشروط المعرفة الحقّة عندما اهتم بالغايات على حساب الوسائل.

ويعتبر العلم الحديث علما علمانيا وعاجزا أيضا لاهتمامه بكل ما يقاس ويكمم، بالمقابل أهمل أسئلة المعنى التي تشكل محور الجزء الآخر الذي لا يمكن إنكاره في حياة الإنسان، أو هو الجزء الأهم على الإطلاق.

أثبت لنا الواقع أن العلم المادي أشكل على البشرية، وجلب لها الهلاك وكثير من الكوارث التي زعزعت أمنه وسعادته، ما جعل أصابع الاتهام توجّه إليه وإلى مناهجه الصارمة. بناء على هذا يمكننا القول بأن التصور العلمي

---

(26): ينظر: *حسان الباهي، جدل العقل والأخلاق في العلم*، ص37.

(27): *طه عبد الرحمن، سؤال العمل*، ص 240.

(28): *إدموند هوسرل: أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية*، تر: اسماعيل المصدق، ص48.

(29): المرجع نفسه، ص 44.

الخالص للعالم لا يمكنه أن ينتج لنا إلا معرفة معلمنة، غير مقدسة تلقي وراءها كل الأعباء الأخلاقية والإنسانية وحتى الميتافيزيقية.

الخاتمة.

بناء على ما سبق نصل إلى أن التصور العلمي ضروري جدا لتفسير الظواهر الطبيعية والإجابة عن بعض الأسئلة التي تحير الكائن البشري. لكن ما يؤخذ عليه أنه يجيب فقط على الظواهر القابلة للملاحظة والتجربة، لذلك يمكن أن نعتبره تصورا قاصرا وعاجزا، ليس بإمكانه احتواء الظاهرة الإلهية ولا الإنسانية. ولأنه أخل أيضا بشروط المعرفة الحقة، عندما اهتم بالغايات على حساب الوسائل وأهمل مقصد الحكمة والفضيلة المرتبطة بالمعرفة.

إضافة إلى هذا فالوجود أكبر من أن يختزل تفسيره في تصور واحد (العلمي)، لذلك لا بد من تواشجه وتلاحمه مع التصور الفلسفي والديني، حتى نتمكن من ملامسة الأجوبة الكبرى للإنسان، الأنطولوجية والمعرفية والقيمية.

التوصيات والمقترحات.

يجب ألا يكون تصور الإنسان تصورا علميا خالصا؛ فالتصور العلمي للعالم جزء من نظرة الإنسان للعالم وليس هي التصور كله، إذ لا بد من زخم من الأفكار وتنوع فيها وفي منابعها حتى يستطيع الإنسان بناء أو تشكيل تصور للعالم يعتمد على العلم ويهتم بالمعرفة ولا يسقط من حسابه أو لا يلغي الدين والروحانيات والقيم والأساطير والجمال...

قائمة المراجع.

1- ألبيرت أشفيتسر، 1963، فلسفة الحضارة، تر: بدوي، عبد الرحمان المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

2- إعداد مركز المعارف للتأليف والتحقيق، 2017، العالم في المنظور الإلهي والمنظور المادي، المعرفة العقلية والقلبية، بيروت، لبنان.

3- الباهي حسان، 2009، جدل العقل والأخلاق في العلم، دار إفريقيا الشرق، المغرب.

4- تيبس يوسف، 2014، التصورات العلمية للعالم، قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة، دار الوافد الثقافية-ناشرون، بيروت، لبنان.

5- سوزان حرفي، 2009، العلمانية والحداثة والعولمة حوارات مع عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، مصر.

6- راسل برتراند، 2008، النظرة العلمية، تر: عثمان نويه، دار المدى للثقافة والنشر.

7- ستيس والتر، 2009، الدين والعقل الحديث، تر: إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت.

8- الشيكر محمد، 2006، هايدغر وسؤال الحداثة، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب.

9- عبد الرحمن طه، 2000، سؤال الأخلاق–مساهمة في النقد الأخلاقي في الحداثة الغربية-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

10- عبد الرحمن طه، 2012، سؤال العمل–البحث عن الأصول العلمية للفكر والعلم-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب.

11- فريق شبكة العالم الثالث ورابطة المستهلكين، 1988، أزمة العلم المعاصر، تر: هبة ناصر، سلسلة الدراسات الغربية، بينانغ، ماليزيا، ع 10.
12- موران إدغار، 2012، هل نسير إلى الهاوية، تر: عبد الرحيم حزل، دار إفريقيا الشرق، المغرب.
13- نصر سيد حسين، 2017، الحاجة إلى علم مقدس، تر: حمادة أحمد علي، وعمر نورالدين، دار نيوبوك للنشر والتوزيع، القاهرة.
14- هوسرل إدموند، 2008، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، تر: اسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان.